ميثولوجيا الفيل المدلل

ومسألة الكارزما الأمريكية

توجد صور قانونية عامة مقررة في كافة التشريعات ، هذه الصور – بصرف النظر عن النظام القانوني الذى تنتمي اليه – تنطبق على الحالات التي تتلاءم معها ، سواء أكانت تنضوى تحت لواء القانون العام ، أم الخاص. (١)

فاستخدام مجال قانوني لصيغة معينة موظفة في مجال آخر ، لا يعني اننا حيال محاكاة وتقليد ، بقدر ما يعني اننا حيال تداع فكرى وتعبير عن طبائع الأشياء ، وقواعد العقل ، وفكرة القانون في ذاتها التي تجد لها معالم وتحققات متعددة.

وبالطبع ، فنحن لا نقصد من قولنا هذا اثارة مسألة تقنوية فنية ، بقدر ما نقصد التدليل بقصور المؤسسة الدولية وعطالتها ومزالقها وخروجها على فكرة المؤسسة وماهيتها وطبيعتها الذاتية..

وبيان ذلك أن المؤسسة – أية مؤسسة – مشروع وجهاز تتحدد مبرراته وغالته في خدمة فكرة ، وفي تجسيدها والتعبير عنها ، وهذا ما يجعله يتمتع بذيمومة وقدرة تفوق قدرة الأفراد الذين يتحرك بواسطتهم.

فالمؤسسة كائن قانوني له أصله في الفرد ، ولكنه أبقى وأسمى وأخلد منه ، اذ الأفراد يفنون ، ولكن الأسرة تدوم بروحها ، والأمة بتقاليدها وآمانيها (٢) والمؤسسة تجعل نظام الحياة موضوعيا ، وبذلك يظهر النظام القانوني على الوقائع والأفراد ، فلا يختلط أمره بهم ، بل يؤدى الى توحدهم وتجذرهم واستقرارهم – بعد تشتت – حول فكرة الحق والعدل والصالح العام.

صحيح أن الفكرة لا تنطق الا بأفواه البشر ، ولكن قيمة هؤلاء تتحدد في قوة الفكرة التي يجسدونها ، وبذلك فمبعث احترامي للزعيم وانحنائي له وقبولي توجيهاته برضاء واحترام ، هو [illegible] الذي أستشف عبره مشروعا يهمه كما يهمني ، ولكنه يتجاوزه كما يتجاوزني. (٣)

١- Stasinopoulos: Traite des acte administratifs, Athènes, 1954, P. 22

٢- د. محمد طه بدوى: القانون والدولة ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ط١ ، ١٩٥٥ ، ص٦٠

٣- جورج بوردو: الدولة ، ترجمة د. سليم حداد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥ ، ص ٧٠

والمؤسسة كظاهرة اجتماعية ، تخضع لكل ماتخضع له مظاهر الحياة من التمدد والتقلص ، ولهذا فهي تقوم على توازن قلق ، يجد مناط استقراره في الحياة ذاتها ، وليس في اصطناع البنى القانونية .

انها طاقات الارادات الجماعية في تماسها الدائم وتشوفها المستمر نحو كافة الأشكال المتغيرة للعدالة وكافة الوجوه المتعددة للسعادة .

ان الحياة صراع دائب رهانة الفوز بممارسة السلطة ، لكن هذا الفوز ليس غاية في ذاته ، بقدر مايعني امتلاك الأدوات لخلق النظام والقانون .

والمؤسسة هي الضابط لذلك عبر جدلية النظام والحركة ، اذ النظام حركة تم تمثلها وهضمها ، وبالمقابل فالحركة تنشط لتندرج في نظام .

وهذه اللعبة ذات الاتجاهين المتناقضين ظاهريا ، تصنع من الديناميه جدلية تستبدل فيها المواجهة بعملية تجاوز .(١)

فالمؤسسة تستمد جوهرها الحقيقي من حركية الصيغ ، والنظام لا يصنع من حركة الماضي ، بل من الحركة الحاضرة ، ولا يمكن له أن يستمر الا بقابليته على تمثلها واستيعابها ، ومن هنا نرى أن المنافسة لاتؤدي الى تصدع النظام ، بل الى اثرائه بتطلعات الحركة ، والنظام ليس في الحقيقة والجوهر سوى مرحلة من مراحل مسيرة الجدلية التي تسمح له ، عبر تجدده بتمثل الحركة .

واذا كان النظام يوصف بأنه من صنع الحركة ، فالحركة بالمقابل محركها فكرة النظام الذي تسعى الى اقامته .(٢)

ان عظمة ((الصفر)) لاتكمن في ذاته ، وانما في تلك القدرة التوليدية الناجمة من امتزاجه ببقية الأرقام ، في صور وأشكال لا حصر لها .

وفي نظرنا ان عظمة المؤسسة التوليدية تكمن في انطلاقها من الشخص العادي للوصول الى الشخص الأمثل ، انها محاولة للتوفيق بين مبدأ المساواة ، وبين حقيقة عدم المساواة الطبيعية ، فهي تحاول أن توجد أداة اجتماعية تعمل على اعتبار الشخصية والتعبير عنها ، مفترضة — كما يقول بيرنز — ان جميع الناس متساوون من أجل اكتشاف من هو الأفضل .(٣)

---

(١) جورج بوردو : الدولة ، ص ١٠٧

(٢) جورج بوردو : الدولة ، ص ١٠٩

(٣) د . محمد عبد المعز معز : النظريات والنظم السياسية ، بيروت ، دار النهضة ، ٩٧٣

وعلى النقيض من ذلك ، فامتزاج المؤسسة بارادة شخص أو أكثر ، يجعلها تقبع وترسف في قيود هذه الارادة ، وتفتقر الى القوة التوليدية ، الى جدلية الحركة والسكون ، الحركة المتحققة في السكون ، والسكون المتجدد بتطلعات الحركة .

هذه الآلية الدقيقة لعلاقة الحركة بالسكون ، تحققت في مؤسسة الدولة عبر مسيرة طويلة للروح البشرية من مخاض الألم والدموع ، ومع ذلك فلم تستطع الجماعة السياسية ان ترقى الى مصاف الدولة ـ المؤسسة المتسمة بالفصل بين ارادة الحاكم وصاحب المشروع ((الشعب)) (١) ، لم تقو على ذلك الا بعد حل مشكلة السيادة واستقرارها في يد الشعب بدل الحاكم ، ثم تذررها بامتلاك كل فرد عادي جزءا من هذه السيادة (٢) ، بحيث أصبح الشعب السياسي معادلا للشعب في حقيقته الاجتماعية ، وغدت الارادة العامة وليدة اتحاد الارادات المتذرة للسيادة وتفاعلها واتحادها من خلال مساواتها وتجانسها .

وبهذا التحليل فالسلطة العامة في الدولة هي الارادة العامة للشعب ، وما يطلق عليه مجازا سلطات الدولة التشريعية ـ القضائية ـ التنفيذية ((، ان هي في حقيقة الأمر الا اجهزة للارادة العامة (٣) ، السلطة الوحيدة في الدولة ، وأداة كل ذلك تقنويا ، فعالية الاقتراع العام كآلية لتجديد العقد الاجتماعي ...

هل خضعت المؤسسة الدولية لتلك الآليات والتداعيات ، وهل انطلقت من طبائع الأشياء وفكرة المؤسسة في ذاتها وقوانينها الداخلية ، أم هي مجرد تقنين وصياغة فنية ـ وبشكل آخر ـ لفكرة القوة وأسبابها ومقتضياتها ، لا سيما أن مؤتمر سان فرنسيسكو الذي تم فيه الاتفاق على ميثاق الأمم المتحدة ، كان مؤتمرا للجنود أكثر منه مؤتمرا للشعوب . (٤)

---

(١) د . ثروت بدوي : النظم السياسية ، ج ١ ، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص٢٣ ، حيث أطلق على هذه الظاهرة جهازا مفاهيميا دستوريا هو تأسيس السلطة :
institutionnalisation du pouvoir
بمعنى قيام الدولة صاحبا للسلطة السياسية ، وما الحاكم سوى الا مجرد أداة في يد الدولة تمارس عن طريقة سلطتها

(٢) د . ثروت بدوي : النظم السياسية ، ص ٤٤

(٣) د . حسن صعب : المدخل الكامل للقانون ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٤ ، ص ٨٧

(٤) د . حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٦٩ ، ص٨٧٤

ان اعطاء بعض الدول حق العضوية الدائمة في مجلس الأمن وحق الاعتراض يخل بفكرة المؤسسة في ذاتها ومنطقها وماهيتها ، ويجردها من قوتها التوليدية الأساسية ، جوهر ديناميتها وتجددها وتطورها وانطلاقها ، وذلك بمواجهة الحقائق الكمية بالحقائق الكيفية ، واختيار الأمثل انطلاقا من العضوية العادية .

ونحن لا نجد أي تطور أساسي في تلك المؤسسة الدولية بالمقارنة مع مؤسسة الدولة ((الرقابة على السلطتين التشريعية والتنفيذية)) ، والسبب في ذلك دون ريب ذوبان واستغراق حقيقتها الموضوعية في الارادة الذاتية للأعضاء الدائمين ، أي بسبب عجز هذه المؤسسة عن حل جوهر وجودها مشكلة السيادة وتذررها وفكرة المساواتية التي تحمل عليها .

والأنكى من ذلك ، فقد كانت هذه المؤسسة تساير — أثناء قيام الاتحاد السوفييتي — بآلية الفصل الجامد rigid بين السلطات ، وهذه الآلية أدت الى استاتيكية المؤسسة المذكورة وعقمها واستغراقها بروح الحرب الباردة التي سادتها ، وبالمقابل — وبزوال منظومة الاتحاد السوفييتي — فقد انطلق العفريت من القمقم ليتكوّل على كل شيء ، ولتصبح هذه المؤسسة أقرب ماتكون الى نظم تمركز السلطات وتركزها في يد سلطة واحدة ، والتحلل والفلتان من كل قيد أو شرط ((مبدأ السلطان الكلي أو الشمولية التوتاليتارية)) .

هذه الشمولية عادت بالحياة الدولية الى عصر الملوك ، حيث كانت الدولة هي الملك وكانت الجماعة تذوب في سلطته الشخصية ، وتتوقف على مشيئته وارادته ونزواته ، وليس لها سند ترتكز عليه الا قوته .(١)

ماذا يعني ماشهده عن مأساة شعبنا العربي الشقيق في العراق بتكتل الحلفاء ضده وما هو أساس هذا التكتل وغايته وسنده القانوني ، وكيف يسمح نظام المؤسسة الدولية بنشوئه ، ثم كيف تنفرد فرنسا عن هذا التكتل لتؤكد انها لم توافق حاليا على ضرب بغداد ، مرد ذلك خواء هذه المؤسسة وعطالتها ومزالقها ...

الأصل في القانون الدولي ان أي تقييد لمبدأ السيادة — باعتبار السيادة سلطة مبتدأة أصلية وأصيلة وتنبع من ذاتها ولا تقبل التقييد — يفسر تفسيرا ضيقا —

لقد كان من نتائج حرب الخليج الثانية الحظر الجوي للطيران العراقي ضمن خط العرض ٣٢ ، ولكن كيف توسع هؤلاء الحلفاء في تفسير هذا الحظر ليشمل نصب الصواريخ المضادة للطائرات .

---

(١) د . ثروت بدوي : النظم السياسية ، ص ٢٤ .

والأمر نفسه بالنسبة للمسألة الليبية ومسألة البوسنة ، والمبعدين من أبنائنا وأشقائنا في فلسطين ، في حين تصرح الولايات المتحدة سلفا بأنها ستستعمل حق النقض ضد أي قرار يتعلق بمساءلة اسرائيل حول ذلك ، متخذة بذلك صفة الحاكم لا الحكم، والعدو لا القاضي .

هل هناك أقدس من الانتفاضة ، وهل هنالك انتهاكات للحقوق مثل مايحدث على أرضنا في فلسطين ، حيث ازهاق النفوس حدث يومي ، وحيث تحرق وتهدم المنازل على رؤوس قطانها ، كل ذلك يقع أمام ناظري الولايات المتحدة ، وحلفائها رؤوس الشياطين دون أن تحرك ساكنا، في حين انها أقامت الدنيا وأقعدتها من أجل تفجير الطائرة فوق مدينة لوكربي ، والقياس مع الفارق بين المسألتين أهمية وجوهرا وثبوتا ، والقضية أولا وأخيرا تكمن في تدهور الأخلاق الدولية وافلاسها وافتقارها الى نواظم وضوابط وأسس تحكم الحياة الدولية ، وذوبان هذه الحياة في ارادة الولايات المتحدة ومصالحها ومكاييلها وموازينها الخاصة المضطربة .

ان الولايات المتحدة الأمريكية تتغول على المؤسسة الدولية ، وتوجهها باتجاه مصالحها ، وتذيبها في أهدافها ، مستخدمة استخدام القوة ، القوة الغاشمة كهدف وبصورة مسبقة ، ثم تتخذ المشروعية الدولية غطاء وأداة (١)، كل ذلك في منطق ظلامي لا أخلاقي لسان حالها في ذلك ، لسان حال لويس الرابع عشر القائل : أنا الدولة والدولة أنا .

واذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن الاحتكام الى ذمة الولايات المتحدة (٢) وظلمها المؤسسة الدولية .

---

(١) جورج المصرى : الارهاب في النظام الدولي الجديد ، مجلة الوحدة العدد (٩٨) لعام ١٩٩٢ ، ص ١١٧

(٢) د . نديم البيطار: هل يمكن الاحتكام الى الولايات المتحدة في النزاع العربي الاسلامي ، معهد الانماء العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦

وقد أكد أن بنية الولايات المتحدة وتكوينها لا يسمح بهذا الاحتكام

واذا كان من المتعذر احتكام أمتنا الى الضمير القانوني للولايات المتحدة ، فمن باب أولى تعذر الاحتكام الى كارزما هذه الدولة ، أي الى مكانتها ونفوذها الأدبي ورأسمالها الرمزي الانساني ، وتألقها الحضاري والخلقي والقيمي ٠(١)

فالكارزما تعني التألق ((مشتقة من كلمة charm)) ، والتأثير على الغير بالجاذبية والأسس النفسية والاجتماعية والخلقية ، وعلى هذا الأساس ، فقد أطلق ((موريتو)) وأتباعه اسم التلفاز على الجاذبية التي تمارسها شخصية بعض الناس على الآخرين ، بما يسمح باملاء ارادتهم ولعب الدور القيادي ، ذلك لأن باقي أعضاء الجماعة يبنون على شاشة هؤلاء الزعماء مافي نفوسهم من آمال ومشاعر ٠(١)

بهذا المعنى يمكن وصف عمر بن عبد العزيز : بالكارزما لأن محمدا في نظره هاديا لا جابيا ، ولأنه أخرج جنده من بخارى بسبب فتحها بصورة غير شرعية ، كما يمكننا أن نصف صلاح الدين الأيوبي بذلك لأنه أبى — خلافا للصليبيين — أن يخوض القدس بالدماء ، متوجها ببوصلة الرحمة والانسانية بذهان القوة الغاشمة ٠

أما بوشس — ومثله معه دولته — فلا يمكن وصفه بذلك لأنه غلب — في معالجته للمسألة الليبية والعراقية — دواعي القوة وذهانها على مقتضيات الانسانية ٠

ذلك ان القوة افراز وظيفي للخلل والبنى المتفككة ، أما البنى الاندماجية فتساس بالقيم الخلقية والانسانية ٠

لقد أصبحت الحياة الدولية أكثر انسجاما بعد زوال الاتحاد السوفييتي ، وكان من المفروض أن تتبوأ الولايات المتحدة مركز الكارزما والزعامة الحقيقية في هذه المسكونة ، وأن تطبع الآليات القانونية في المؤسسة الدولية بطابع التعاون والتكامل الدولي ، ومع ذلك فقد حدث عكس ذلك تماما اذ اتخذت أزمة الخليج الثانية ساحة لتثبيت دعائم النظام الدولي الجديد حسبما تراه ، ولتقلص من احتمالات تبلور نظام متعدد الأقطاب وقائم على المساواة ، وهكذا فقد أظهرت لحلفائها أهمية القدرة الفكرة في حماية المصالح ، كما أن سيطرتها على النفط العربي دعم مركزها أزاء هؤلاء الحلفاء ، ومن ناحية أخرى فقد قدمت درسا لكيفية التعامل مع القوى الاقليمية التي قد تتحدى هيمنتها ،

---

(١) جان وليام لابيار : السلطة السياسية ، ترجمة الياس حنا الياس ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، ط٣ ، ١٩٨٣ ، ص ٣٧

ومن ناحية ثالثة ، فقد دفعت بروح الفاعلية في الأمم المتحدة لاستخدامها في مسألة الشرعية الدولية من وجهة نظرها ومصالحها ٠(١)

لقد فتحت الحملة على العراق المجال الواسع أمام هذه الدولة لاستعراض امكاناتها العسكرية ، وابراز ماتحويه ترسانتها الحربية من أحدث الوسائل القتالية الفتاكة لابهار العالم واقناعه بفكرة الهيمنة عليه ، وما ان انتهت هذه الحملة حتى بدأت تتصرف باعتبارها القطب الوحيد الذى يدير ناصية العالم ، ويملك مقاليد الحل والربط ، وانبرى ((بوش)) ليعمد دولته رأسا للعالم ، فالقى خطابا أمام الكونغرس ضمنه آلية تكريس الهيمنة على الطريقة الأمريكية ، وذلك باطلاق الشعار الطنان ((النظام العالمي الجديد)) الذى يخفي المصلحة الأمريكية تحت غطاء الدعوة الى التعاون الدولي ٠(٢)

لكن ماهو مرد موقف هذه الدولة من قضايا أمتنا ؟؟

في الحقيقة هنالك أسباب عدة أهمها :

١ـ ان مشكلة هذه الدولة الكبيرة مشكلة بنيوية ماهوية تمتد في جذورها ، الى فلسفة الحياة ، الى غلو المذهب الفردى وركوبه متن المبالغة والشطط ، وتغوله على الصالح العام وعطالة هذا الصالح العام وعدمه في الانطلاق بالمجتمع لاستشراف آفاق الكارزما الانسانية ، بما يترتب على ذلك من عطاء وتضحية في سبيل تحقيق النفع العام الدولي ٠

وتاريخ الولايات المتحدة حالك وحافل بتدبير الانقلابات العسكرية والتدخل وصور الاعتداء على الحياة الدولية ، هل هنالك مجال لفتح الملف الظلامي لهذه الدولة؟؟

---

(١) جورج المصرى : الارهاب في النظام الدولي الجديد ، مجلة الوحدة المرجع السابق ، ص ٨ ١١

وانظر ريتشارد نيكسون : امريكا والفرصة التاريخية ، ترجمة د ٠ محمد زكريا اسماعيل مكتبة بيان ، بيروت ، ط١ ، ١٩٢ ، ص ٨

(٢) د ٠ علي الجرباوى : في النظام العالمي الجديد ، مجلة دراسات عربية ، العدد (١٠) لـ ١١ و ١٢ لعام ١٩٢ ص ١

وانظر ريتشارد نيكسون : أمريكا والفرصة التاريخية ، ص ٩ ، وقد أكد حرفيا مايلي :

لقد استخدم الرئيس بوش ، في أزمة الخليج الأمم المتحدة ولم يدعها تستخدمه لا بل أعلن صراحة انه لم يكن على استعداد لتغيير خط سيره فيما لو أن الأمم المتحدة لم تسمح باستخدام جميع الوسائل الضرورية لتحرير الكويت ٠

لقد غزت جرينادا عام ١٩٨٣ ، واعتدت عام ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ على ايران وأفغانستان ، كما اعتدت على الهند ، وسيريلانكا والسلفادور وهندوراس وفييتنام وكوبا وكوريا والدومينيكان ونيكاراجوا وناميبيا وجواتيمالا ، هذا فضلا عن تهديدها عشرات المرات باستعمال السلاح الذري .

اذن هل يمكن وصف هذه الدولة ـ صاحبة العصا الغليظة ـ بالكارزما والزعامة الدولية والقيادة الانسانية ، أم بالامبراطورية الشريرة السوداء .

كيف يمكن لهذه الدولة أن تتكلم عن نهاية للتاريخ لصالحها ، وهي تؤسس فلسفتها على مذهب القوة ، ومتى كانت القوة سندا للحياة ، وكم يطالعنا التاريخ بأمثلة لانحطاط الامبراطوريات وزوالها ووفاتها (١) ، وكم هي العورات والآفات والعاهات التي تنذر ببداية أفولها وسقوطها ، دليلنا على ذلك جملة الدراسات المستقبلية التي ظهرت في أوربا وأمريكا ومنها على سبيل المثال كتاب جاك آتالي بعنوان آفاق المستقبل .(٢)

وحقيقة الأمر ان العاهات والعورات التي تنخر المجتمع الأمريكي وتتشعب فيه الأنياب والأظافر ، هذه العاهات لا حصر لها ، ويكفينا أن ندلل بما أكده الرئيس نيكسون من ان استهلاكها من المخدرات يساوي استهلاك دول العالم مجتمعة مع ان سكانها لا يتجاوز جزءا من عشرين من سكان العالم ، كما ان معدل الجريمة فيها أعلى معدل في العالم ، وان عدد الذين قتلوا أثناء فترة حرب الخليج يفوق عشرون ضعف الأمريكيين الذين قضوا في هذه الحرب ، وان (٣٨) مليونا من سكانها لا يحصلون على الرعاية الصحية المناسبة ، لأنهم غير قادرين على دفع التكاليف ، وأخيرا ففي هذه الدولة من الأشرار مايجعل مدنها الكبرى غير أمينة ، والحياة لا تطاق .(٣)

أما أزمة السود الخانقة فهي غنية عن التعريف ، وان احداث انتفاضاتهم في لوس انجلوس وسان فرنسيسكو ، واتلانتا وواشنطن ونيويورك لما تنته بعد ذيولها .

هذا على صعيد الذات ، أما على الصعيد الخارجي ، فهذه العافية ليست أوفر حظا ، يكفينا أن ندلل بميزان القوة بين الدولة المذكورة واليابان ، وتوجس العديد من الامريكيين من الشبح المتمثل بشراء اليابان لأمريكا

وتحويلها الى مستعمرة اقتصادية ، كما يتضح من شراء شركة السينما يونفرسال ومركز روكفلر وشركة السينما يونفرسال .(٤)

---

(١) ريتشارد نيكسون : امريكا والفرصة التاريخية ، ص ٩

(٢) ترجمة د . محمد محمد زكريا اسماعيل : نشر دار العلم للملايين ، بيروت

(٣) كتاب امريكا والفرصة التاريخية ، ص ٢٦٩

(٤) كتاب أمريكا والفرصة التاريخية ، ص ١٥١

ولقد بلغ العجز التجاري الأمريكي مع اليابان ٤٦ مليار دولار عام ٩٨٥ و(٥٥) مليار عام ٩٨٦ و٦٠ مليار عام ٩٨٧ و٦٥ مليار عام ٩٩٠ .(١)

أما سبب ذلك فكثرة انتاج اليابان لمنتجات في أعلى درجات الجودة ، بينما تنتج أمريكا سلعا في مستوى الخردة ، هذا فضلا عن ان اليابان لها أخلاق عمل قوية في حين أن الأمريكيين كسالى ، واليابانيون يدخرون في حين أن الأمريكيين يبذرون .(٢)

٢ـ هذه الدولة سلسبلة الضمير القروسطى لأوربا وهذا الضمير يلقي بثقله على وجدان الدولة المذكورة فيحول دون تبوءها مقاليد الكارزما العالمية .

وحقيقة الأمر انه من المؤسف بمكان الكلام عن خط الشرق والغرب ، ولكن كيف يمكننا أن نفسر الأحداث التاريخية منذ الحروب الصليبية مرورا باجهاض المشروع العربي النهضوى لمحمد علي باشا على احتلال نابليون لمصر ، وصعودا وصعودا باحتلال المغرب العربي ثم المشرق العربي ، وخطاب غورو لصلاح الدين ، واتفاقية سايكس بيكو ، ووعد بلفور تتويجا بالمشروع الصهيوني الأطلنطي لاحتلال أرضنا في فلسطين ، ثم محاربة المشروع النهضوى الناصرى ، وغير ذلك من الأحداث ، هل يمكن السكوت عن هذه الأحداث والمواقف والقول انها وليدة الصدفة والنزعة العرضية الطارئة ، أم أن هنالك خطأ يجمعها ، ويربط فرادتها ، بل ان هنالك حقيقة موضوعية في الفرد .(٣)

اذا أمكن الحديث عن تحلل هذا الضمير من عقدته فكيف نفسر معيار المكيالين ، ومظاهره التي سبق الاشارة اليها. وحقيقة الأمر أن المسألة الأولى والأخيرة تكمن في هذا الجهاز المفاهيمي الذى كشف عنه علم النفس الاجتماعي والمتمثل بالضمير العام أو الشعور الجمعي أو الروح العامة ، هذا المخزن الأثر بالرأسمال الرمزى للأمة من قيم وتصورات ومحان وأساطير ومنظومات سلوك ، وذكريات ، وغير ذلك .

---

(١) أمريكا والفرصة التاريخية ، ص ١٥٢

(٢) أمريكا والفرصة التاريخية ، ص ١٥٣

(٣) انظر في تحليل هذه الظاهرة ظاهرة المجتمع في الفرد أو المدرسة الاجتماعية ممثلة في دركيم . عالم المعرفة ـ الكويت عدد ١٦٥ لعام ٩٩٢ ، ص ٥٦

والأمانة العلمية تدفعنا للتقصي والتنقيب والتفكيك واجراء الحفر التاريخي الأركيولوجي على هذا الضمير الغربي لتقصي جذوره والقبض على الأواليات القارة والثاوية فيه من صور وأشكال العداء للعروبة والاسلام ..

المشكلة الكبرى في هذا الضمير انه لا مكان للغير في منظومته الخلقية أو القانونية ، بل ان العالم مقسوم لديه بصراحة الى قسمين ، القسم الثاني ينعت بالكفر والبربرية والعداء ، وغير ذلك من النعوت العدائية .

والأمر على خلافه بالنسبة للمذهب الغربي الاسلامي في الجنس البشرى ((المذهب الغربي الاسلامي في الانسان والأنسنة العربية الاسلامية)) ، فقد اتسم بالانفتاح على الثقافات والأديان والأمم والايمان بحرية الفكر وقدرة العقل البشرى ومحبة الحقيقة والسعي للمحبة أنى كانت ، ومن أى مكان أتت ، وبتراكم المعارف والثقة بها .(١)

ولقد توسعت منظومة الغير في الدار الاسلامية ، حيث دخل بمفهوم أهل الكتاب البرابرة والمجوس والصائبة ، وكل من اعتقد دينا سماويا ، وله كتاب منزل ، مثل التوراة وصحف ابراهيم وشيث وزبور داوود ، ومرد ذلك روح التسامح عند العربي المسلم ، وعلى الرغم من وجود آية في القرآن تشعر بأن المقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى .(٢)

~~حدد أهل الكتاب بالنصارى واليهود .(٣)~~

ولم هو اليوم الشاسع بين منظومة الجهاد ، وبين حق الفتح الذى ساد في أوربا ، وتبلور عقب اكتشاف القارة الجديدة .

فالمقرر لدى جمهور المسلمين ان الاذن بالقتال مشروط بدفع الظلم ، أو حماية الدعوة وقطع الفتنة (٤) ، بل ان مالك بن أنس الفقيه المشهور يشترط اخطار العدو بالدخول في الاسلام حتى لو كان هو المهاجم .

---

(١) انظر في عرض هذا المذهب : د . علي زيعور : مقالة الموسوم بعنوان الاجتهادات الكبرى للخطاب العربي الاسلامي ، مجلة الاجتهاد ، بيروت ، دار الاجتهاد ، عدد ٨ لعام ١٩٩٠ ص ١٣٩

(٢) رضوان السيد : مفاهيم الجماعات في الاسلام ، دار التنوير ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤ ، ص ١٢٢

(٣) رضوان السيد : مفاهيم الجماعات ، في الاسلام ، بيروت ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط١ ١٩٨٤ ، ص ١٢١

(٤) د . حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٨٢٢

والسؤال المطروح هو ، هل استطاعت الدار الغربية في تليدها وطريقها أى تقدم لنا مثلا يكافىء شرفا حادثة دخول الفاتحين العرب مدينة بخارى ، ثم خروجهم منها ، لأنهم خالفوا القواعد الاجرائية التي فرضها الدين الحنيف .

واذا كان التاريخ لم يخلف من هو رحم من العرب حسب القول المشهور ((لغو ستاف لوبون)) فالأمر على خلافه بالنسبة للدار الغربية في القرون الوسطى ، فقد ماجت هذه الدار بالظلامية ، وصور الحقد على العرب والمسلمين ، ونحن ماضون للقبض على الجذور التاريخية لهذه الظلامية .

وغني عن القول ان هذه الجذور تمتد الى الموارد اليونانية والرومانية والرافدين المسيحي واليهودى .

ذلك أن التأثير اليوناني في الضمير الأوربي ، أمر خارج عن نطاق الجدل ، وهذا ماحدا ((مين)) للقول : اذا استثنينا مظاهر الطبيعة ، فكل مايتحرك في أوربا يرتد الى منشأ يوناني .

ولا خلاف بأن هذا المورد يعاني عقدة السيد والعبد ، وكل ماهو من الغير برابرة أعدتهم الطبيعة لأن يكونوا عبيدا وخدما ، بل ان الحرب كالصيد في نظر أرسطو ((كتابه السياسة)) . (١)

ولقد تأسس نظام الامبراطورية الروماني على السيطرة المادية الخالصة ، وعلى خضوع الشعوب بالقوة لروما ، وان كان هذا الأمر تلطف بعد احتكاك الرومان بحضارات الشرق القديم ، ونشأ من ذلك قانون الشعوب : Jus Juntium . (٢)

ولقد كان تأثير المسيحية في روما نسبيا ومؤقتا ، وسرعان ماتر ومن هذا الدين العظيم حسب تعبير ابن خلدون .

وعلى هذا الأساس ، فقد وجدنا رجال الدين المسيحي ، واعتبارا من القرن الرابع الميلادى ، يبررون روح السيطرة العسكرية ، وظهر ذلك جليا في كتابات القديس ((امبرواز)) و ((أيزيدور)) ، ثم أوغسطين ، حيث يبحث الحرب الاعتدائية بوصفها من اعمال القضاء العادل المنتقم .

---

(١) د . حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٨٠٦

(٢) د . حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٨٠٧

أما تأثير التراث اليهودي على الفكر الأوربي ، فهو أمر خارج عن نطاق الجدل الأمر الذي حدا علماء الاجتماع في أوربا للكلام عن الثقافة اليهودية المسيحية Judo-Christian :

يكفي أن ندلل بأن نظرية نهاية التاريخ التي تبرر القطبية الكونية الأحادية الليبرالية ، هذه النظرية تعتد بجذورها الى العهد القديم .

فقد جاء في سفر دانيال أنه ستقوم بعد مملكة آشور وبابل وميديس وفارس والاسكندر ، امبراطورية عظيمة تكون نهايتها هي نهاية العالم ، وكان هذا هو تفسير دانيال للحلم الذي رآه في نومه الملك نبوخذ ناصر ، وتكرر هذا القول في انجيل بولس ، ..

ولقد شعر شعوب العصور الوسطى ، هذه الامبراطورية بأنها العظمى بأنها الامبراطورية الرومانية ، ولذلك تعلقت عليها آمال الشعوب الأوربية ، وقام الاعتقاد باستمرار قيامها ، وان النظام السياسي الجديد في الغرب هو نظام روماني خالص ، ولعل هذه العقيدة هي التي تفسر الاسم الذي أطلقه شارلمان على امبراطوريته ((الأميراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة)) . (١)

هذه الأسباب — ومثلها معها — تفاعلت مسطحا وعمقا ، فتمخضت عن اعتبار العالم المعروف الذي يكون المعمورة مقصورا على دول أوربا من ناحية ، وتلك الأقاليم التي يسكنها الكفرة المسلمون . (٢)

لقد تولد لدى الأوربيين هاجس اكتشاف الطرق الجديدة للتمكن من فرض السيطرة على المسلمين من ناحية البحر ، لذلك فقد خصص الروم هنري الأمير البرتغالي أربعين سنة من حياته لوضع الخطط اللازمة للوصول الى الهند عن طريق البحار المجهولة . (٣)

وازداد هذا الأمر وضوحا بعد اكتشاف ((كولومبس)) قارة أمريكا ، فقد سارع علماء القانون الأوربيين المسيحيين الى تقرير القاعدتين الآتيتين :

١ — ان كل اقليم خارج نطاق أوربا المسيحية يعد اقليما مباحا Res nullius يجوز لأية دولة مسيحية امتلاكه عن طريق الاكتشاف والحيازة الرمزية .

٢ — يعد هذا الاقليم المكتشف اقليما مباحا ، حتى ولو كان مسكونا ، ويحيا عليه شعبه الأصلي ، لأن الأسرة الدولية التي لها حق الانتفاع بأحكام القانون الدولي ، هي مجتمع مغلق لا يشمل الا الدول الأوربية المسيحية . (٤)

---

(١) د . حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٨٠٩
(٢) د . حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٧٦٥
(٣) د . حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٧٦٦
(٤) د . حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٧٦٧

ويلاحظ أن جون كابون الذى أصدر له الملك هنرى السابع أمرا في الخامس من آذار ١٤٩٦ لاكتشاف الأقاليم الجديدة التي يحيا عليها الكفرة المسلمون ، الذى اكتشف الاقليم المعروف بالولايات المتحدة ، لم تزد اقامته على شاطىء الاقليم المكتشف سوى ساعات قليلة مكتفيا بوضع بعض الأعلام البريطانية على الشاطىء ، وكان ذلك كافيا لادخال الاقليم في ملكية بريطانيا ٠(١)

وكان يكفي بالاستيلاء الرمزى على جزء من الشاطىء الذى يصب فيه نهر من الأنهار ، أن تدخل في ملكية الدولة مساحة الاقليم التي تمتد من المصب الى منابع هذا النهر ٠(٢)

كما أن الاستيلاء على جزء واسع من الساحل من قبل دولة يكفي لادخال المساحة الاقليمية جميعها من الساحل الى الداخل ٠(٣)

ولكن هل تحلل الضمير الغربي نهائيا من هذه الظلامية ؟؟

الجواب على ذلك من زاويتين :

— زاوية التشكل الخاص للضمير الأمريكي ضد أمتنا العربية الاسلامية تحت تأثير عدة عوامل ، منها التأثير المتميز للحركة المسيحية الأصولية الأمريكية ٠

— زاوية استمرار عداء هذا الضمير الجمعي لأمتنا بأشكال ومظاهر لا حصر لها ٠

وفي الحقيقة فهذه الأصولية الأميركية ، هي أحد الأعمدة الأساسية للمشروع الصهيوني ٠(٤)

ويرتبط بذلك ماتثيره هذه الأصولية ومؤسساتها ومنظماتها وقادتها من أطروحات سياسية وعقائدية وممارسات ضغط وتأثير في المجتمع الأمريكي ، وفي السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الصراع العربي الاسرائيلي ٠(٥)

---

(١) د ٠ حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٧٦٨

(٢) د ٠ حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٧٦٨

(٣) د ٠ حامد سلطان : القانون الدولي في وقت السلم ، ص ٧٦٩

(٤) أحمد مفلح : البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني ، مقال منشور في مجلة المستقبل العربي عدد ١٦٨ لعام ١٩٩٣ ، ص ١٧٥

(٥) أحمد مفلح : البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص ١٧٥

والحركة المذكورة تنطلق من الايمان بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس، والاقتناع بأنه يتضمن توجيهات للحياة بما في ذلك الشؤون السياسية، وخصوصا النبوءات التي تشير الى أحداث مستقبلية لصالح اسرائيل والعودة الثانية للمسيح ٠(١)

ولعل بروز حركة الاصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر، أهم حدث في نشوء تلك الأصولية حيث نقلت الأساطير الصهيونية واعتمدت التفسيرات الحرفية للتوراة، وأصبحت فلسطين في العقل المسيحي الأوربي البروتستانتي الأرض اليهودية الموعودة، كما دخلت هذه التعاليم التوراتية الأدب والفن الانكليزي ٠(٢)

لقد شكلت الاتجاهات الصهيونية عنصرا بارزا في الحياة الثقافية والسياسية الأمريكية منذ بداية استيطان الأوربيين العالم الجديد، وذلك بفضل المهاجرين الأوائل ((البيوريتانيين)) الذين حملوا معهم التقاليد والقناعات التوراتية ٠(٣)

ذلك انه عندما اكتشفت أمريكا وفاضت خيراتها على أوربا، اندس اليهود في قوافل المهاجرين الى العالم الجديد حاملين معهم مؤامراتهم وأطماعهم ونزعتهم الانعزالية، وبدأوا بجمع المال واكتنازه، ولما اندلعت نيران الثورة الأمريكية جاءت فرصتهم لتقوية نفوذهم وأطماعهم، فاستثمروا الأحداث، وتاجروا بالاسلحة، وتجسسوا لحساب الطرفين، فردت عليهم هذه الأعمال المال الوفير، والنفوذ الذي أوصلهم الى سدة الرئاسة الأمريكية بزعامة فرنكلين روزفلت اليهودي الأصل ٠(٤)

مثل بسيط عن تأثير الاعلام الأمريكي لصالح الحركة الصهيونية المسيحية الأصولية، يتضح من عدد المحطات الاذاعية الدينية البالغة حوالي ١٤٠٠ محطة تبث الواحدة منها حوالي (١٧) ساعة يوميا، وهذا يعني ان متوسط مايقضيه تلاميذ المدارس الثانوية من الوقت أمام شاشة التلفزيون يفوق مايقضونه في المدارس، مع التنويه بأن التلفزيون هو المصدر الرئيسي لوجهة نظر الأمريكيين عن العالم الخارجي ٠(٥)

ومن المؤسف ان مظاهر العداء هذه لم تبق في ذمة التاريخ ولكنها ذكريات حية لدى الأحداث المعاصرة، وفيما يلي غيض من فيض من تلك المظاهر العدائية ٠

---

(١) أحمد مفلح : البعد الديني في السياسة الأمريكية، ص ١٧٦

(٢) أحمد مفلح : البعد الديني في السياسة الأمريكية، ص ١٧٦

(٣) أحمد مفلح : البعد الديني في السياسة الأمريكية، ص ١٧٧

(٤) أحمد مفلح : البعد الديني في السياسة الأمريكية، ص ١٧٨

(٥) أحمد مفلح : البعد الديني في السياسة الأمريكية، ص ١٧٦

— لقد اجاز الرئيس الأمريكي ((ريجين)) العدو الأكبر بيجين غزو لبنان عام ١٩٨٢ موهما أن هذه المعركة هي معركة ((هرمجون)) المذكورة في التوراة ، والتي هي المعركة النهائية بين الخير والشر ، ليفسح المجال لظهور المسيح وقيام القيامة على عهده وزمانه ، فينال رضاء الرب . (١)

— وتكلم عن تلك النبوءة الرئيس الأمريكي ((بوشن)) في حرب الخليج ، وذلك أمام حشد أمريكي في مقر جمعية بني (برث) احدى أهم دعائم الهيكلية اليهودية الصهيونية مفاخرا بأنه كان رئيسا جيدا لصالح اسرائيل ، وانه نجح في فك عزلتها الدولية بعد أن قضى على الخطر الذى يمثله العراق . (٢)

— ماقاله ريمون دولان وزير خارجية فرنسا ، وأكدته مجلة التايمز اللندنية بأن العالم العربي وهم ، وان ماهو أكثر منه وهما سياسة ديجول المزلزلة بأن هذا العالم هو محور سياسة المستقبل .

قول مستشار بريطاني — أقام طوال العقدين الماضيين في دول الخليج — على أثر حوار جرى معه بتاريخ ٦/٨/١٩٩٠ ، قوله مايلي :

ان مارسمته بريطانيا للمنطقة سوف يستمر مهما كلف الأمر ، وتحت أى ظرف ، فالمنطقة قد أخذت شكلها المستقر على ضوء ذلك والأوضاع التي صاغتها بريطانيا في منطقة الخليج بالذات غير قابلة للنقاش أو التعديل أو التبديل ، حتى لو اضطر الأمر الى خوض حرب بعد حرب ... ان الخليج مختلف جدا عن بقية المناطق العربية ، فبعيدا عن وهم وجود أمة عربية الذى يتمسك به البعض من المهووسين ، على الرغم من أن الوقائع أثبتت عدم واقعيته وافتقاره الى مضمون صلب ، فقد تشكلت أمم في منطقة الخليج ، وليس مجرد شعوب ودول ، هنالك أمة كويتية ، وأمة بحرينية ، وأمة قطرية ، وهكذا ... والمسألة ليست في عدد السكان ، بل في تركيبهم ، فالعرب أقلية صغيرة في كل واحدة من هذه الأمم الخليجية التي تبلورت وتتكرس بقوة ورسوخ والتشكيل الحضارى لكل منها يحتم عليها الاستماتة في الاستقلال والتمايز ، ونحن نتفهم مشروعية هذه النزعة ونحميها ... ان الذين اعترضوا على مارسمته بريطانيا ونفذته في منطقة الخليج — وهم بالمناسبة قلة من المهوسين القوميين سوف يعضون أصابعهم ندما بعد الآن ... =

---

(١) برهان الدجاني : مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي ، مقال منشور في مجلة المستقبل العربي ، عدد ١٦٥ ، لعام ١٩٩٢ ، ص ١٧

(٢) برهان الدجاني : مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي ، ص ١٨

اذ وجدت الولايات المتحدة فرصتها لاستكمال الهيمنة المباشرة على المنطقة ٠٠٠٠٠ فالأسلوب البريطاني يتميز — بالحكمة والحنكة المستندين الى تراث عريق وخبرة طويلة، أما الأمريكيون ، فالأمر مختلف تماما لأن سلوكهم الفج والنزق المملوء عجهة سوف يجعلهم أشبه بفيل في متجر للزجاج ٠(١)

— قول كليمنصو عام ١٩١٤ بأن قطرة النفط أغلى من قطرة الدم ، وما أكده عام ١٩٩٢ الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه الفرصة السانحة عام ١٩٩٢ بقوله : أكثر مايهمنا في الشرق الأوسط هو النفط واسرائيل ٠

وقوله عام ١٩٨٠ : ستكتسب منطقة الخليج أهمية استراتيجية بالغة أثناء العقود المقبلة ٠٠٠٠ علينا اليوم أكثر من أى يوم مضى ، أن نعلم من يسيطر على مافي الخليج والشرق الأوسط لأنه المفتاح الذى يسمح لنا بأن نعرف من يسيطر على مافي العالم ٠(٢)

— لقد أقرت ادارة الرئيس الأمريكي ريغان مشروع قيام نظام شرق أوسطي يحل محل النظام الاقليمي العربي الراهن الهش ، وينهي تأثيرات الرابطة العربية ، ووافق الكونغرس الأمريكي بالاجماع سنة ١٩٨٣ على مشروع المستشرق اليهودى الأمريكي البريطاني الأصل برنارد لويس القاضي بتقسيم منطقة الشرق الأوسط بأكملها من جديد بما في ذلك تركيا وايران وأفغانستان ، بحيث ترسم خارطة جديدة للمنطقة تتحول فيها كل قبيلة في الجزيرة العربية الى دولة ٠(٣)

— وجاء فوكو ياما ليتسق هذه المواقف والآراء ويؤسطرها ويصيغها في قالب فلسفي بمقولته ، مدللا بالانتصار النهائي لليبرالية ، ووصول البشرية الى نهاية التاريخ ، حيث لادموع ولا آلام ، وحيث يتحقق كل طوبى وأمل منشود ويصل قطار التاريخ الى غايته المرتجاة ، باستثناء بعض المركبات ولن تحول عطاله المسلمين دون وصول هذه المركبات ٠(٤)

---

(١) خير الدين عبد الرحمن : مقالة الموسوم بعنوان جزيرة الوحوش وأسئلة حول مصير الامة مجلة المستقبل العربي ، عدد ١ ، لعام ١٩٩٢ ، ص ٦٢

(٢) خير الدين عبد الرحمن : 〃 〃 〃 ص ٥٤

(٣) مقال خير الدين عبد الرحمن : مجلة المستقبل العربي ، ص ٥٩ ، وانظر صالح زهر الدين ، صهيونة الوطن العربي استراتيجيا ، بيروت العدد ١٠٦ ، ١٩٩١ ، ص ٤٠

(٤) للتعرف على رأى فوكو ياما والردود عليه انظر: مجلة الاجتهاد ، دار الاجتهاد بيروت ، العددان ١٥و١٦ لعام ١٩٩٢ ، ص ٢٧٥ وما بعدها

لكن الشيء المؤلم هو أن هذا العداء لا يقتصر على المسلمين ، بل يتعداه الى الاسلام ذاته ، وهذا ما أكده ميشيل دوبريه (رئيس وزراء فرنسا الأسبق) من أن الاسلام هو العدو الأول والمباشر للغرب ، وقول مارغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة : لقد بقي على الغرب أن يقضي على الاسلام بعد ما قضى على الشيوعية ٠(١)

أما جان كلود بارو ، فيؤكد في كتابه ((الاسلام والعالم المعاصر)) انه مكان للتعايش بين العالم المعاصر الذى أصبح ديمقراطيا وليبراليا وبين الاسلام ٠(٢)

ويتساءل جان فرانسوا روفيل في كتاب الانتعاش الديمقراطي قائلا : هل الثقافة الاسلامية هي العاجزة عن التكيف مع الديمقراطية أم انها الثقافة العربية ، ويأتي الجواب سريعا : الاثنتان معا ٠(٣)

ويؤكد هذا الكتاب عجز الاسلام عن الاندراج في الحضارة الديمقراطية ، وتقديم فهم للعالم المعاصر ، ويتساءل قائلا : كيف يمكن أن نصف بالتسامح ديانة يتساوى فيها الاختلاف مع الاعداء ٠(٤)

وأخيرا فالاسلام في نظر المذكور حقيقة سياسية — دينية ، توتاليتارية في العمق حتى الآن ، والأنظمة الفكرية التي تتضمن في مبدئها الأصلي ، مشروع الفتح العالمي ، هي النازية والشيوعية والاسلام ، ومن ثم لا يمكن المساومة مع مشروع هدفه تدميرنا ٠(٥)

مثله في ذلك مثل السوفييتي العادى ، شخص لا يحول ولا يزول ، يحمل مشروع التهديد في ذاته ويعجز عن الخلاص منه ٠(٦)

هذا هو الوعي الجمعي الاطلنطي بمخزونه ومضمونه وروافده والعوامل التاريخية المكونة له ٠

---

(١) مقال خير الدين عبد الرحمن السالف الذكر ، ص ٦٣٠

(٢) مجلة الاجتهاد العددان ، ١٥و١٦ ، ص ٣٠٥

(٣) مجلة الاجتهاد العددان ، ١٥و١٦ ، ص ٣٠٦

(٤) مجلة الاجتهاد ، العددان ، ١٥و١٦ ، ص ٣٠٧

(٥) مجلة الاجتهاد العددان ، ١٥و١٦ ، ص ٣٠٧

(٦) مجلة الاجتهاد العددان ، ١٥و١٦ ، ص ٣٠٧

ويبدو بيقين أن هذا الوعي يتناقض قدريا ومصيريا مع أمتنا العربية ومشروعها النهضوي ، وهو الأمر الذي يتضح من تآلب الدول الأوربية جمعاء على مشروع محمد علي باشا النهضوي ، ووقوفها — خلافا للتقليد التاريخي — مع تركيا ، والأمر نفسه بالنسبة لموقفها من المشروع الحضاري لعبد الناصر ، ومن أي مشروع وحدوي مهما كان شكله ومضمونه وتركيبه .

لقد بلغت الوقاحة في هذا الحلف غير المقدس — رغم التناقضات الداخلية بين أعضائه — أن يسفر عن عدائه الواضح للاسلام ذاته ، وهو أمر ليس بالعجب ، باعتبار الاسلام هو الاحتياطي الروحي الأعظم لأمتنا العربية ، والميكانزم الذي يمكن أن يفجر طاقات لا حدود لها ، هذا فضلا عن انه بنى — ومرشح أن يبني حضارة روحية تتعارض مع الحضارة الأطلنطية المادية ؟؟ ؟

وفي نظرنا أن المستقبل سيشهد صراعا عنيفا بين هذه الحضارة ، وبين تشوفات أمتنا لخيار حضاري تابع من شخصيتها ووعيها وذاتها — حيث الاسلام يتموضع في الماهية والجوهر من هذا الخيار — وهذا هو المغزى المستخلص من حديث فوكوياما عن نهاية التاريخ ، وتدليله بالانتصار النهائي لليبرالية ، ووصفه الاسلام بالعطالة — لا سيما خارج حوضه — واعتباره العقبة الكأداء ، أمام هذا الانتصار الحضاري المزعوم .

ولعل الذي سيؤجج هذا الصراع زوال الاتحاد السوفييتي — كنقيض ايديولوجي لليبرالية — وتفرد الأطلنطيين بأسباب القوة وتحكمهم بالمؤسسة الدولية ، وتحويلها الى جهاز قوة ، لا كنظام عالمي محمول على خلفية المؤسسة ومنطقها الداخلي ...

لقد خطب بوش في الكونغرس ، عقب الانتصار في حرب الخليج الثانية ، معلنا ولاءه للنظام العالمي الجديد الواهم الواهن ، وهذا يعني أن هذا النظام هو الابن البيولوجي للقوة الغاشمة وغطرستها .

والسؤال المطروح هو أين هذه الجدة في نظام المؤسسة الدولية ؟؟

ان النظام يفترض وجود قواعد عامة مجردة موضوعة سلفا وتخاطب الأعضاء بصفاتهم لا بذواتهم ، فهل اتسم النظام العالمي الجديد بهذه الخاصية ، أم انه مجرد ترتيب جديد للقوة ومصادرها ، بوأ الولايات المتحدة وشركاءها مركز الهيمنة على الحياة الدولية ، وفي مقدمة ذلك كنوز أمتنا ، وهو الأمر الذي حدا هذه الدولة للتصريح المتكرر بأن معقد استراتيجيتها العليا في الخليج ، وان هذا الخليج هو مفتاح السياسة العالمية .

ان قوانين التنافس الاقتصادية بين الدولة المذكورة وبقية عالمة الاقتصاد ليس لصالحها ، وبذلك فليس أمامها الا معانقة المذهب العسكري ((الجيو ـ استراتيجي)) لا المذهب الاقتصادي ((الجيو اقتصادي)) .(١)

وأداتها للخروج من هذا المأزق ، العصا الغليظة ، الشرطي العالمي بعيدا عن أخلاقيات الكارزما وتألقها ، وديناميتها القيمية ، وبالتالي فان مايطبق على هذه الدولة من تسمية انما هي تلك التسمية التي أطلقها المستشار الانجليزي ألا وهي الفيل الكبير وغرفة من زجاج ، وان كان من المؤسف حقا ان هذه الغرفة ، هي داري ومنزل آبائي واخواني ، انها وطني الكبير .

ما من أحد بالطبع الا ويفقه ميثولوجيا فيل الملك الذي عاث فسادا في المدينة ، مما حدا سكانها للاحتجاج والتوجه في مسيرة نحو الملك ولكن ـ وبسبب بطش الملك ـ سرعان ماتلاشت هذه المسيرة ، ولم يبق الا شخص واحد أجاب الملك ـ ردا على سؤاله عن سبب مجيئه ـ قائلا : انني أقترح أن يتزوج الفيل .

لقد القى ليفين التبعة الاخلاقية على الاستعمار في حين القى سعد زغلول ذلك على الشعوب موضحا انه لا يبد شعبا يستعمر شعبا ، وانما يجد شعبا يقدم نفسه للاستعمار

ان مصيبة أمتنا الفيل الكبير ، وفي بيوتنا الزجاجية التي تستقبل بشغف هذا الفيل كي يعيث بكرامتها وحريتها ومقدساتها .

والسؤال الذي نطرحه على الشيخ شلتوت الامام الأسبق للأزهر ، وهو كيف يجوز الكلام فقها ، شلتوت الذي يقرر على الفقهاء حديثهم عن تلصص شخص على جاره ، ثم نظر الطرف عن اختراق المستعمر ـ بدباباته وجواسيسه ـ الوطن العربي الكبير ، أي اقتحام الفيل الكبير سعادتنا وأمننا دون أن يكون مثار اجتهاد الفقه والسلطان .

لقد تكلم أفلاطون عن حب الحياة والحماس الروحي ، وتحدث فكيافيللي عن رغبة الانسان بالمجد ، وأشار هوبز الى مفهوم العزة والكبرياء ، أما روسو فشدد على عزة النفس ، في حين ألح هاملتون على حب الشهرة ، وتحدث مادسون عن الطموح ، وأخيرا تكلم هيجل عن حق الاستعراف .(٢)

وحقيقة الأمر ان هذه الميكانيزمات والروافع والقواهر تنتظم تحت ناظم واحد هو وعي الذات والهوية والوجود والكيان .

وفي نظرنا أن أساس المشكلة لا يكمن في أنياب الفيل وخرطومه ، ولكن في البيت العربي المصنوع من زجاج لا من حجارة صلبة متينة ... فهل من مفكر وهل من مقدر وهل من متذكر ... ؟؟

---

(١) د . مسعود ظاهر : حول نهاية التاريخ ، مقال منشور في مجلة الوحدة ، عدد ٦٨ العام ١٩٩٢